الفصل الرابع

النثر الأندلسى وألوانه الفنية

النثر الفنى بين الأندلسيين والمشارقة

النثر العربى منذ نشأته فى المشرق قد تطور تطوراً كبيراً ، ومر بمراحل كثيرة كل مرحلة لها معالمها المحددة من حيث الأساليب والفنون ، والنثر فى الأندلس قد تأثر تأثراً كبيراً بهذه المراحل ، وكثير من طرائق المشارقة الكتابية قد رحلت إلي الأندلس وكل جديد كان يطرأ على نثر المشارقة سرعان ما كان يجد طريقه إلي الأندلس ويتردد صداه هناك ، ويأخذ به الأندلسيون فى كل ما ينشئون فى فنون النثر.

فالرسائل الديوانية التى كانت تصدر عن أمراء قرطبة وخلفائها المروانيين تشبه إلي حد كبير تلك التى كانت تصدر عن الخلفاء الأمويين فى الشرق ، وعندما تطورت الكتابة على يد ابن المقفع رأينا أن ذلك كان واضحاً فى كتابات ابن حزم الأندلسى القرطبى.

والجاحظ بطريقته الكتابية ذو شهرة كبيرة لدى الأندلسيين ، فقد تتلمذ عليه عدد منهم ، وطارت كتبه إليهم ، فأُعجبوا بها ، واحتذوا حذو أسلوبها ، فرسالته " **التربيع والتدوير** " التى كتبها الجاحظ فى أحمد بن عبدالوهاب ، وهو أحد كتّاب عصره ، قد تأثر بها ابن زيدون ، ونسج على منوالها رسالته الهزلية التى يسخر فيها من ابن عبدوس منافسه فى حب ولاّدة بنت المستكفى المروانى .

وطريقة ابن العميد فى الكتابة ، والتزامه السجع ، قد أخذ بها كثير من الكتاب الأندلسيين ، فنسجوا على منوالها رسائلهم وكتبهم ، ومن الذين تأثروا بأسلوب ابن حيان القرطبى فى كتابه (**المقتبس في أخبار الأندلس**) ، والفتح

بن خاقان فى كتابَيْه (**قلائد العقيان**)، (**مطمح الأنفس**) ، وابن بسام فى كتابه (**الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**) وتأثر الأندلسيون أيضاً بمقامات بديع الزمان الهمزنى ، وبمقامات الحريرى فراحوا يقلدونهما ، ويحاكون أسلوبهما فى نثرهم الوصفى ، وليس من شك فى أن الأندلسيين كانوا مقلدين للمشارقة فى هذا الفن الذى استحدثه بديع الزمان ، ومن بعده الحريرى ، فأقبلوا عليه دارسين ومقلدين ومعارضين .

وكذلك وجدت الطريقة الفاضلية المتكلفة من يتبعها فى الأندلس ، فالتزموا بها وبزخارفها اللفظية ، وسجعها المتكلف بل المتعسف، حتى أصبح من غير المستطاع أن تجد ـ اعتباراً من القرن السابع الهجرى- نثراً غير مسجوع ، فتسربت إلي كتاباتهم أسباب الضعف ، ووهن الشيخوخة ، فأوغلوا فى التماس وسائل الزينة من زخارف البديع وأصباغه ، وإلي التعقيد فى استخدام السجع ، إلي جانب الإمعان فى التكلف والإغراب نتيجة الولع بالتقليد ، إلي غير ذلك من وجوه الكلفة ، التى اعتبروها ضرباً من ضروب البراعة والإبداع .

وهذا يؤكد الارتباط الروحى والثقافى الذى لم تستطع الاتجاهات السياسية أن تفصم عراه بين الأندلس والمشرق قبلتهم الثقافية التى إليها يتجهون فى كل فن من الفنون وفى كل علم من العلوم وعلى هدى علمائها يهتدون ويحتذون ، وبطرقهم فى الإبداع يقتدون .

فنون النثر الأندلسى

لقد أبدع الأندلسيون فى كل فنون النثر التقليدية التى عرفها العرب بعد أن أضفوا على نثرهم طابعاً مميزاً ، هو وليد ثقافتهم وأوضاع مجتمعهم ، وشاعريتهم

التى تميز بها الكثيرون الذين كانوا يجمعون بين فنّىْ النثر والشعر وسوف يكون حديثنا - بإذن الله **حول أربعة من فنون النثر هى** : الخطابة ، والرسائل ، والمناظرات ، والمقامات .

١- الخطـــــابة :

لقد تهيأت كل الظروف لنهضة الخطابة فى الأندلس ، فأهلها أصحاب بداهة ونباهة ، وحفظ وفكر ودراية ، واجتمع لديهم من الأسباب التى ساعدت على نهضتها وعملت على رقيها ، واتساع أغراضها ، وازدياد النابغين فيها .

فقد كان الولاة الفاتحون للبلاد من العرب الفصحاء ، وأكثر جنودهم ممن يؤثر فيهم الكلام الجزل ، وكان عدوهم يقف لهم بالمرصاد ، لهذا كانوا أحوج الناس إلي الخطابة من أى سلاح آخر ، فليس غيرها يلهب نار الحمية فى قلوبهم ، ويذكى جمرة الغيرة فى نفوسهم ، ويبعث فيهم روح الأمل ، ويقطع عنهم غائلة اليأس ، ويغريهم بنيل الشهادة فيستميتون فى الزود عن حياضهم ، والدفاع عن دينهم .

والغزوات المتتالية التى قاموا بها لاستكمال فتوحاتهم ، وانتصاراتهم على أعدائهم وملوك الأسبان الذين قُوّضت عروشهم كانوا لا يكفّون عن الإغارة عليهم لتفريق كلمتهم وتمزيق شملهم ، كلها أمور تستوجب قيام الخطباء لاستنهاض الهمم وإذكاء روح الحماسة للجهاد فى سبيل الله ، والدعوة إلي جمع الكلمة ، ولمّ الشمل ، والصمود فى وجه أعدائهم .

وقد كانت عباراتهم فى أثناء هذه الفترة سهلة التركيب، واضحة المعانى، قليلة الاستعارات، بعيدة عن تعمق الفلاسفة وخيال الشعراء، يقل فيها السجع، ويكثر الترسل وتكاد تنحصر أغراضها فى الدفاع عن الدين الإسلامى الحنيف، والحض على الجهاد فى سبيل الله، والدعوة إلي الاتحاد لمواجهة الأعداء، والصبر على الحوادث والكوارث والخطوب.

ومن هذه الخطب، خطبة طارق بن زياد التى ألقاها حين وجد مظاهر الخوف والتردد تبدو على وجوه أصحابه حين علموا بزحف (**لذريق**) إليهم فى جيش يفوقهم عدداً وعدة، **فقال** :

" **أيها الناس، أين المفر** ؟ البحر من ورائكم، والعدوّ أمامكم، وليس لكم والله إلاّ الصدق والصبر، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام وقد استقبلكم عدوكم بجيشه، وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلاّ سيوفكم، ولا أقوات لكم إلاّ ما تستخلصونه من أيدى أعدائكم، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم، ولم تنجزوا لكم أمراً، ذهبت ريحكم، وتعوّضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم، بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة ".

وفى عهد ملوك الطوائف، كثرت العلوم والفنون، وعنى الناس بدرسها، وازدهرت الحضارة، وتنوعت ألوانها، فتعددت أغراض الخطابة وكثرت دواعيها، ولاسيما حين استحكمت حلقات النزاع بين حكام الولايات، وتفرقهم شيعاً كل يناضل عن كيانه ويدافع عن إمارته.

وزدها ازدهاراً المبالغة فى إكرام من يجيدها ، حتى أضافوا القضاء إلي الخطابة وجعلوا لفظ الخطيب من ألقاب التعظيم والتشريف ، فَعَلا شأنها ، وكثر المرتجلون لها فأغرى ذلك العلماء بالنبوغ فيها ، والشعراء بالإقبال عليها ، وهم عليها أقدر وهى لهم أطوع .

وجاءت عباراتها فى هذه الفترة يغلب عليها السجع الخالي من التكلف ، وتكثر فيها الاستعارات الرقيقة ، والميل إلي الإطناب ، والعناية بالمعانى والأفكار ، والاهتمام بالمحسنات البديعية ، وظهور آثار الثقافة المزدهرة ، والذوق الراقى فى التعبير والتصوير والأداء .

ومن نماذج ذلك خطبة ابى الحسن منذر بن سعيد البلوطى فى رسل ملك الروم صاحب القسطنطينية فى قصر قرطبة سنة ٣٣٨هـ فى عهد الخليفة الناصر :

" أما بعد حمد الله والثناء عليه ، والتعداد لآلائه ، والشكر لنعمائه، والصلاة والسلام على محمد صفيه وخاتم أنبيائه ، فإن لكل حادثة مقاماً ، ولكل مقام مقالاً ، وليس بعد الحق إلاّ الضلال ، وإنى قد قمت فى مقام كريم ، بين يدى ملك عظيم ، فأصغوا إلي معشر الملأ بأسماعكم ، وافقهوا عنى بأفئدتكم : إنّ من الحق أن يقال للمحق صدقت ، وللمبطل كذبت ، وأن الجليل تعالي فى سمائه ، وتقدس بصفاته وأسمائه ، أمر كليمه موسى صلى الله على نبينا وعليه وعلى جميع أنبيائه ، أن يذكّر قومه بأيام الله جل وعز عندهم وفيه وفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ".

وفى عهد الرابطين والموحدين ، ضعف شأن الخطابة وانحط قدرها ، لغلبة العجمة على الملوك والأمراء ، فانطفأت شعلة الحماس فى النفوس ، وخمدت جذوة

البلاغة فساء حالها ، لزوال دواعيها ، وجفاف ينابيعها ، وانحصار عوامل قوتها ، فظهرت فيها الصنعة ، وغلب فيها التكلف ، والتزم فيها السجع المُمِلّ ، وذهبت مَلَكة الارتجال من أهلها .

وللقاضى عياض خطبة بادية التكلف ، التزم فيها التورية والسجع الممل ، والمبالغة غير المقبولة فى طول الجمل ، وهى تكشف بوضوح حال الخطابة ، **فيقول** :

" الحمد لله الذى افتتح بالحمد كلامه ، وبين فى سورة البقرة أحكامه ، ومد فى آل عمران والنساء مائدة الأنعام ليتم إنعامه ، وجعل فى الأعراف أنفال توبة يونس وألر كتابٌ أحكمت آياته بمجاورة يوسف الصدِّيق فى دار الكرامة ، وسبّح الرعد بحمده وجعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم ، ليؤمن أهل الحجر أنه إذا أتى أمر الله سبحانه فلا ملجأ ولا كهف إلاّ إليه ، ولا يظلمون قُلامة ، وجعل فى حروف كهيعص سراً مكنوناً قدم بسببه طه صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء ليظهر إجلاله وإعظامه ، وأوضح الأمر حتى حج المؤمنون بنور الفرقان ، والشعراء صاروا كالنمل ذلاً وصغاراً لعظمته وظهرت قصص العنكبوت فآمن به الروم ، وأيقنوا أنه كلام الحى القيوم ، نزل به الروح الأمين على زين من وافى القيامة" .

وعلى هذا النحو من التعسف والتكلف ، والضعف والركاكة ، ومحاولة إظهار الفصاحة والبلاغة ، وتصنُّع التورية بأسماء سور القرآن ، أو بغيرها تحولت الخطابة ، فضاع بهاؤها ، وصارت لا تُقال إلاّ بعد تبييت وإعداد .

٢ـ الرسـائل :

لقد حظيت كتابة الرسائل الأدبية فى الأندلس بكتّاب معظمهم من فرسان الشعر لذلك فقد استطاعوا بما أوتوا من موهبة شعرية ، وذوق أدبى ، أن يرتقوا بأساليب تعبيرهم حتى ليبدوا بعض نثرهم وكأنه شعر منثور، لا ينقصه إلاّ الوزن والقافية.

واستطاع هؤلاء الكتاب أن يجولوا برسائلهم فى مجالات عدة ، وأن يعالجوا كثيراً من الموضوعات ، فتنوعت الرسائل بتنوع أغراضها ، وأصبحت الرسائل على أيدى كتابها أداة تعبير وعرض لشتى الموضوعات ، لما فى صناعة النثر من المرونة والتحرر من قيود الوزن والقافية ، مما أتاح لهم أن يطيلوا ما شاءوا ، وأن ينهج كل كاتب فى صناعته النهج الذى يرتضيه **وهو نوعان من الرسائل هما** :

أ ـ الرسائل الديوانية :

وهى رسائل تصدر عن ديوان الخليفة أو الملك يوجهها إلي ولاته وعماله وقادة جيوشه ، وقد تكون إلي أعدائه منذراً أو متوعداً ، وكان لكل خليفة كاتبه الذى يتولى الكتابة عنه ، وفى مدة الولاة ، كان الأمير هو الملى ، وليس للكاتب إلاّ أن يخط بيده وكانت الرسائل فى هذا الوقت خالية من الزخارف ، جزلة الألفاظ ، متينة التركيب موجزة العبارات ، واضحة المعانى ، ذات أغراض محددة .

ولم يكن يرقى إلي منصب الكتابة لدى الخلفاء والملوك إلاّ كبار الأدباء والشعراء فى عصرهم ، ومع ذلك فهذا النوع من الرسائل مهما بولغ فى

إجادته الفنية ، فإنه لا يخرج عن كونه متصلاً بأمر عارض ، وقلما تكون له صفة الدوام التى تهم الناس فى كل زمان ومكان .

وفى عهد الدولة الأموية وما بعدها تهيأت الفرصة للكتاب لأن يكون لهم نشاط فنى فى ميدان الكتابة الديوانية ، بعد أن شهدت الدولة ازدهاراً حضارياً ونهضة علمية ومن نماذج تلك الرسائل، رسالة لأبى حفص بن برد الأصغر المتوفى سنة (٤٢٨) هـ وهو من كتاب دواوين الإنشاء فى دولة العامريين ، على لسان منْ كان يكتب له من الخلفاء ، لقوم طلبوا الأمان من مولاه :

" أما بعد فإنكم سألتم الأمان ، أوان تلمظت السيوف إليكم ، وحامت المنايا عليكم وهمّت لنا حظائر الخذلان أن تفرج لنا عنكم ، وأبدى العصيان أن تتحفنا بكم ، ولو كِلنا لكم بصاعكم ، ولم نرع فيكم ذمة اصطناعكم ، لضاق عنكم ملبس الغفران ، ولم ينسدل عليكم ستر الأمان ، وكلنا علمنا أن كهولكم الخلوف عنكم ، وذوى أسنانكم المعاصرين لكم ممن يهاب وسم الخلعان ، ويخاف سطو السلطان . ولولا تحرجنا أن نقطع أعضائكم بكم ورجاؤنا أن يكون العفو على المقدرة تأديباً لكم لشربت سباعكم الكماة ، وأكلت لحومكم ضباع الفلاة ، وقد أعطيناكم بتأميننا إياكم عهد الله وذمته ، ونحن لا نخفرهما أيام حياتنا إلاّ أن تكون لكم كرّة ، ولغدركم ضِرّة ، فيومئذ لا إعزلكم ، ولا إقصار عنكم ، حتى تحصدكم ظباة السيوف ، وتقضى ديون أنفسكم غرساء الحتوف " .

والرسائل الديوانية التى يصوغها الكتاب ليس لها نمط معين فى الألفاظ والأساليب إنما تتفاوت فى الأغراض والأهداف التى تُكتب فيها الرسالة .

ولما كانت رسالة ابن برد هذه للإنذار والتهديد ، نراه قد استخدم الأسلوب الذى يروع ويخيف بالألفاظ المشبّعة بالوعيد مع جزلة التركيب ، واستعارات تجسم المعانى التى يقصدها ، وكتابات تومئ بالويل والثبور إن هم غدروا أو خلوا بعهودهم.

ب ـ الرسائل الإخــوانية :

وهى تلك الرسائل التى تدور بين الإخوان والأصدقاء ، وهى ميدان فسيح يتبارى فيه الكتاب والأدباء ، ليظهروا من خلاله إبداعاتهم ، ويعبروا عن عواطفهم الشخصية فى أسلوب أدبى راق، باعثهم فى ذلك حال بلادهم ، ورقة هواهم ، وصفاء أجوائهم ووفرة محفوظهم ، وشاعرية خيالهم .

ولقد تناول كتاب الأندلس وأدباؤهم من خلال رسائلهم كل الأغراض التى كتب فيها أهل الشرق ، فكتبوا فى التهانى والتعازى ، والمداعبة والتهادى ، والشكر والافتخار والشكوى والعتاب ، والاعتذار والاقتضاء .. إلي غير ذلك من الموضوعات المنثورة فى كتبهم .

وفيما يلى بعض من رسائلهم الإخوانية للاستدلال بها على طبيعتها ، وأساليبها **وبعض من موضوعاتها** :

كتب الوزير الكاتب أبو المطرف بن الدباغ فى تعازى ، فقال :

" من أى الثنايا طلعت النوائب ، وأى حمى رتعت فيه المصائب ، فواهاً لحشاشة الفضل أرصدها الردى غوائله ، وبقية الكرم جر عليها الدهر كلاكله ، ويا

حسرتاً للجة المواهب كيف سُجّرت ، ولشمس المعالي كيف كُوِّرت ، ويا لهفي على هضبة العلم كيف زُنْزِنت ، وحدة الذكاء والفهم كيف فللت ، فإنا لله ، أخذاً بوصاياه، وتسليماً لقضاياه " .

وكتب أبو حفص من برد الأصفر يعاتب صديقاً له :

" أظلم لي جد صفائك ، وتوعرت عليّ أرض إخائك ، وأراك جَلْد الضمير على العتاب غير ناقع الغلة من الجفاء ، فليت شعرى ما الذى أقسى مهجة ذلك الود ، وأذوى زهرة ذلك العهد ؟ " عهدى بك وصِلتُنا تغرق من اسم القطيعة ، ومودتنا تجل عن صفة العتاب ونسبة الجفاء ، واليوم هى آنس بذلك من الرضيع بالثدى ، والخليع بالكأس ، وهذه ثغرة إن لم تحرسها المراجعة وتُذْكِ فيها عيون الاستبصار، توجهت منها الحيل على هدم مابيننا ، ونقض ما اقتنينا ، وتلك ناعية الصفاء ، والصارخة بموت الإخاء " .

وكتب على التطيلى إلي ابن عبد الصمد السرقسطى يستدعيه إلي مجلس أنس فقال :

" أنا- أطال الله بقاء الكاتب- سراج العلم ، وشهاب الفضل فِى، سالت بيننا للهو أودية ، وحَضَرتْنا مقلة تسأل منك إنسانها ، وصحيفة فكن عنوانها ، فإن رأيت أن تجعل إلينا القصد لنحل بك فى جنة الخلد ، صَقَلْتَ نفوساً أصداها بُعْدُك ، وأبرزت شمساً أدْجَاها فقدك " .

وعلى وجه العموم فإن الرسائل الإخوانية تتميز بسهولة الألفاظ وحسن اختيارها وقصر الجمل ، واستخدام التشبيه ، والتنوع بين الجمل الخبرية والإنشائية ، مع الميل إلي السجع القصير الفواصل ، والإكثار من

الاستعارات والكنايات ، والجمع بين الشعر والنثر فى رسالة واحدة ، والاستشهاد فى ثناياها بأشعار الآخرين وتضمين الأمثال والاقتباس من القرآن الكريم .

ثم أخذت الكتابة بعد هذه المدة يتقلص ظلها ، ويذهب رواؤها ويظهر فيها التكلف وتُمحى خصائصها شيئاً فشيئاً ، ويرجع ذلك لسببين رئيسيين :

أولهما : تساقط الولايات الأندلسية الولاية تلو الأخرى ، وفقدانها الشخصيات التى كانت تتذوق الأدب ، وتقدر أصحابه حق التقدير ، وكان بمقدورها تحريك النشاط الأدبى وتوجيهه الوجهة الصحيحة ، وذلك بعد أن انتقل زمام السلطة إلي غيرهم من المرابطين والموحدين ، وهم لم يكونوا مؤهلين لرعاية الأدب والأدباء فى الوقت الذى أوْلوا العلماء والفقهاء كل عناية ورعاية ، لأنهم كانوا السبب الرئيس لدخولهم البلاد وتمكنهم منها فاعتمدوا عليهم فى كل أمر من أمور واستعانوا بهم فى جميع الأعمال ، وأوكلوا إليهم كل المهام .

ثانيهما : تولى فريق من الفقهاء مهمة الكتابة فى الدواوين بخبرة معدومة ودراية مفقودة ، وإدراك علم ونظر لوسائل البلاغة والبيان لا إدراك ممارسة وتطبيق فجاءت كتاباتهم ذوقها جاف ، وطبيعتها جامدة ، وصنعتها باهتة وأساليبها ممقوتة .

وانعكس ذلك على الكتاب الأندلسيين فاتجهوا إلي الكتّاب السلاجقة يأخذون منهم وينسجون على منوالهم ، فتسربت إلي كتاباتهم أسباب الضعف ، وتمثل كتابة الفتح بن خاقان أسلوب الأدباء فى هذه الفترة .

كتب الفتح بن خافان يهجو أحد العلماء فقال :

" هو رمد جفن الدين ، وكمد نفوس المهتدين ، اشتهر سخفاً وجنوناً ، وهجر مفروضاً ومسنوناً ، وضل فيما يتسرع ، ولا يأخذ فى غير الأباطيل ، ولا يشرع ولا يرد سوى الغمة ولا يكرع ، ناهيك من رجل ما تطهر من جنابة ، ولا أظهر مخيلة إنابة ، ولا استنجى من حدث ، ولا أشجى فؤاده بتوار فى حدث " .

وهكذا نرى مبالغتهم فى التماس وسائل الزينة من زخارف البديع وأصباغه ، وولعهم بحشد المصطلحات العلمية ، ولجوؤهم إلي التعقيد فى استخدام السجع ، بمداخلة بعض السجعات فى بعض أو ببناء الرسالة كلها على سجعة واحدة.. إلي غير ذلك من وجوه الكلفة التى أصروا عليها ، ونظروا إليها على أنها من مظاهر الاقتدار ، وضرب من ضروب البراعة والإبداع .

٣ـ المناظرات :

المناظرة : أن يتجادل خصمان حول موضوع أو أكثر ، بحيث يحاول كل منهما تأييد رأيه بالبرهان وإبطال رأى مخالفه ، ودحض حجته ، والأصل فيها أن تكون حديثاً غير مكتوب ، ولكن بعضها يكون كتابة ، وهو فن يهدف الكاتب من ورائه إلي إظهار مقدرته البيانية ، وبراعته الأسلوبية فى الموضوع الذى يكتب فيه.

وقد كثرت المناظرات فى الشرق وبخاصة ما دار منها بين الفرق والمذاهب الإسلامية حتى وُضع علم أدب البحث ، وعلم الجدل لتنظيم الكلام ، على وجه يعطى كل مجادل حقه والذى يهمنا هنا هو المناظرات الأدبية ، وقد كان للأدب منها نصيب كبير.

والمناظرات الأدبية – على وجه العموم – بعضها يصور الحقيقة كمناظرة بديع الزمان الهمزني وأبي بكر الخوارزمي في نيسابور فقد عُقد لهما مجلس مناظرة تناظرا فيها في جملة مسائل كل يدلي بحجته ، ويظهر براعته ، وانتهت المناظرة بانتصار بديع الزمان– ومنها مناظرات متخيلة يراد بها تبيين رأيين مختلفين في أسلوب جدلي كمناظرة صاحب الديك وصاحب الكلب في كتاب الحيوان للجاحظ ، ومناظرة الربيع والخريف المنسوبة إلي الجاحظ ، ومناظرة السيف والقلم لابن الوردي ، والمناظرات بين الأزهار في كتاب نسيم الصبا .

وفن المناظرات ليس من مستحدثات الأندلسيين ، فقد سبقهم إليه المشارقة من أمثال ما ذكرناه ، إلاّ أنهم قد أجادوه وأبدعوا فيه وتوسعوا في موضوعاته ، سواء أكانت متخيلة أو مستمدة مادتها من الحقيقة والواقع .

أ ـ المناظرات الخيالية :

لقد كثر هذا الضرب من المناظرات عند الأدباء الأندلسيين وبخاصة ما دار منها بين الأزهار ، ولابن برد الأصغر رسالة موجهة إلي الموفق أبي الجيش مجاهد العامري وفيها يعقد مناظرة بين السيف والقلم ، يبتدئها بمقدمة يذم فيها الحسد ، ثم انتقل إلي موضوع المناظرة **فقال** :

" وإن السيف والقلم لما كانا مصباحين يهديان إلي القصد ، ارتقيا لساميات المراتب وشفيعهن لا يؤخر تشفيعهما ، ومُجَمِّعَيْن لا يفرق تجميعهما ، جررا أذيال الخيلاء تفاخراً وأشمّا بأنف الكبرياء تنافراً ، وادعى كل واحد منهما أن الفوز لقدحه ، وأن الورى لقدحه ... وحين كشف الجدال قناعه ، ومد الخصام ذراعه...

فإما يتباريان فى المقام ، ويتساجلان فى الخصال ، ويصف كل واحد منهما جلال نفسه ، ويذكر فضل ما اجتنى من غرسه ...

فقال القلم : **ها ! الله أكبر!** ... خير الأقوال الحق ، وأحمد السجايا الصدق والأفضل من فضله الله عز وجل فى تنزيله مُقسِماً به لرسوله ، **فقال** :

﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾

(القلم:١)

وقال : -

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾

(العلق:١-٢)

فجلّ منْ مُقْسِم ، وعزّ منْ قسم ! فما ترانى وقد حللت بين جفن الإيمان وناظر، وجُلْتُ بين قلب الإنسان وخاطر؟ لقد أخذتُ الفضل برمته ، وقدتُ الفخر بأزمته .

فقال السيف : عَدِّنا من ذكر الشريعة ، إلي ذكر الطبيعة ، ومن وصف العلة إلي وصف الخصلة ، لا أسِرُّ ولكن أعلن ، قيمة كل امرئ ما يحسن ، إن عاتقاً حمل نجادى لسعيد ، وإن عَضْداً بات وسادىٍّ لسديد ، يُشَقُّ منى الدجى بمصباح ، ويقابل كل باب بمفتاح ، أُفصِحَ والبطل قد خرس ، وأبتسم والأجل قد عَبس ، أقضى فلا أنصف ، وأمضى فلا أُصْرَفُ ، أُزرى بالوفاء وأهتك الأمة هتك الرداء !

وهكذا كل من السيف والقلم يحاول كل منهما أن يعلى من مناقب نفسه ، ويحط من مناقب الآخر ، بأسلوب أدبى رشيق ، وبلفظ مُنتقى رقيق ، دون أن يستسلم له .

فيقول ابن برد : "ولما كثر تعارضهما ، وطال تراوضهما ،... تبادرا إلي السِّلم يعقدان لواءه وإلي المؤالفة يردان ماءها وقالا : إن من القبيح أن تتشتت أهواؤنا ، وتتفرق آراؤنا وقد جمعنا الله فى المألف الكريم ، وأحلنا بمحل غير ذميم ، بأعلى يد نالت آمالها ، ووافقت المطالب فى أوطانها ، ولم تقابل باباً مغلقاً إلاّ قرعته ، ولا حجاباً مُضْلِعاً إلاّ رفعته ،.... تلك يد الموفق أبى الجيش مولى المعالي ومسترقها ، ومستوجب المكارم ومستحقها ... فإذ قد عدل بيننا بحكمه ، يوم وغاه ويوم سلمه... ولم يثنك حتى بلغ مناه ولم يثنني حتى وافق هواه ، ولم يقصر بى من غاية بلَّغك إليها ، ولم يُقدِّمك إلي مرتبة أخَّرَك عنها ،.... فأهدى سبيل نقصده ، وأصفى منهل نرده ، مؤالفة نجر ذيلها ، ونميل ميلها ... "

ثم اتفق السيف والقلم على أن يبرما معاهدة صلح بينهما ، على أن تكون تلك المعاهدة شعراً لا نثراً ، لأن الشعر شدو الحادى ، وزاد الرائح والغادى ، ثم يختتم ابن برد رسالته بقصيدة مدح لمجاهد العامرى **يقول في مطلعها** :

قد آن للسيف ألاّ يَفْضُلَ القلما

مُذْ سُخِّر الفتى حاز العلا بهما

إِن يُجْتَنى المجدُ غضاً من كمائِمه

فإنما يُجْتَنى من بعض غرسهما

ما جارياً أملاً أو وافياً أمداً

إلاّ وكانت خصال السَّبْق بينهما

ثم يختتمها بقوله :

يأأيها الملك السَّامى بهمته

إلي سماءِ علاً قد أعْنيَتِ الهِمما

لولا طِلابي غريب المدحِ فيك لما

وصفت قبل علاك السيف والقلما

وإنما كان تعريضاً كشفتُ بـهِ

من البلاغة وجهاً كان مُلْتَثِمـا

ومع أن موضوع الرسالة هو المدح ، إلاّ أن معانيها ـ كما ذكر الدكتور عتيق ـ مستوحاة من واقع الحال فى عصر الطوائف ، حيث كان التميز فيه للجند ، لا لأهل الفكر وفى ثناياها شكوى مُبطَنة من هذه التفرقة ، لم يشأ الكاتب أو لم يستطع أن يصرح بها فرمز بالسيف فيها لرجال الجيش ، وبالقلم لأرباب الفكر ، ثم أجرى الحوار بينهما وانتهى فيه بالإيحاء إلي ضرورة العدل فى المعاملة بينهما ، لأن الدول إنما تبقى وترقى طالما كان هناك تضافر بين رجال السيف وأرباب القلم ، ولن يتحقق ذلك إلاّ بالعدل بينهما فى الرعاية والتقدير.

ب ـ المناظرات الواقعية (غير الخيالية) :

وهذا الضرب من المناظرات تستمد موضوعاته من الحقيقة والواقع ، ولا علاقة له بالخيال ، وللأندلسيين فيه باع كبير ، فقد قالوا وأجادوا ، ودافعوا من خلالها عن بلادهم وعن علمائهم ، ومن بين هذه المناظرات التى دارت بين مدن الأندلس ، حيث تفخر كل مدينة بما خصّها الله به من مزايا ومحاسن لا توجد فى غيرها ، وأنها أحق بالأمير وأولى ، تلك الرسالة التى وجهها الأديب الأندلسى **أبو بحر بن إدريس** إلي الأمير عبدالرحمن ابن السلطان يوسف بن

عبدالمؤمن بن على- استهلها أبو بحر ابن إدريس بدعاء للأمير عبدالرحمن **يقول فيه** :

" مولاى أمتع الله ببقائك الزمان وأبناءه ، كما ضم على حبك أحنائهم وأحناءه وأوصل لك ما شئت من الأمن والأمان ، كما نظم قلائد فخرك على لبّة الدهر نظم الجمان ... ألبست الرعية برود التأمين ، فتنافست فيك من نفيس ثمين ، ... فكم للناس منْ أمن بك وإيناس ، وللأيام من لوعة فيك وهيام ، وللأقطار من لبانات لديك وأوطار وللبلاد من قراع على تملكك لها وجلاد ،... **ويقول** : أنا أحق وأولى ، ويصيح إلي إجابة دعوته ويصغى ويتلو إذا يشربك : ذلك ما كنا نبغى ، تميزت حمص غيظاً، وكادت تغيظ غيظاً ، **وقالت** :

" مالهم يزيدون وينقصون ، ويطمعون ويحرصون ، إن يتبعون إلاّ الظن ، وإن هم إلاّ يخرصون ، ألهم السهم الأسد ، والساعد الأشد، والنهر الذى يتعاقب عليه الجزر والمد ؟

أنا مصر الأندلس والنيل نهرى وسمائى التأنس والنجوم زهرى ، إن تجاريتم فى ذلك الشرف ، فحسبى أن أفيض فى ذلك الشرف [1] ، وإن تَبَجَّحْتُم بأشرف اللبوس فأى إزار اشتملتموه كشنتبوس ؟ لى ما شئت من أبنية رحاب ، وروض يستغنى بنضرته عن السحاب ، قد ملأت زهراتى وهاداً ونجاداً ، وتوشح سيف نهرى بحدائقى نجاداً فأنا أولاكم بسيدنا الهمام وأحق ، الآن حصحص الحق .

[1]) الشرف : بلد بحذاء أشبيلية يحتوى على قرى كثيرة تكثر بها أشجار الزيتون وهم يفتخرون بها لكثرة خيرها .

فنظرتها قرطبة شدراً ، **وقالت** : لقد كثَّرْت نزراً وبذرت فى الصخر الأصم بزراً كلام العدا ضرب من الهذيان ، وأنَّى للإيضاح والبيان ؟ متى استحال المستقبح مستحقاً ؟ ومنْ أودع أجفان المهجور وسنا ؟

إذا دعيتم سبقاً ، فما عند الله خيراً وأبقى لى البيت المطهر الشريف ، والاسم الذى ضرب عليه رواقه التعريف، فى بقيعى محل الرجال الأفاضل ، فليرغم أنف المناضل وفى مجامعى مشاهد ليلة القدر ، فحسبى من نباهة القدر ، فما فما لأحد أن يستأثر علىّ بهذا السيد الأعلى ، ولا أرضى له أن يوطئ غير ترابى نعلاً ، فأقرُّوا لى بالأبوة ، وانقادوا لى على حكم البنوة ، ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة ، وكفوا عن تباريكم ، ذلك لكم عند باريكم " .

وبعد ذلك تأتى مدن غرناطة ، ومالقة ، ومرسية ، وبلنسية ، وتُدْمير ، فتتباهى كل واحدة منها بمحاسنها ، وتظهر فضلها على غيرها ، وأنها أحق وأوْلى بأميرها ... ثم يختم الرسالة بدعاء طويل مسجوع متكلف للأمير كما بدأها .

والمناظرات باعتبارها فناً من فنون النثر ، لها شأن عظيم فى الأدب وغيره فهى بجانب كونها تكشف عن الحقائق ، فترى الحجة القوية فى ظاهرها ، يدحضها المجادل بفكر دقيق ونظر ثاقب ، فلها أيضاً تأثيرها على الأسلوب ، فلا تجدى معها الفكرة الغمضة والعبارة المبهمة ، بل تحدد الفكرة ، وتصاغ لها العبارة ، لا تزيد عليها ولا تنقص ويستولى الفكر المنظم لا الوهم على الكلام ، وهى بوجه عام لا يقوى عليها إلاّ منْ أوْلى حظاً من العقل الناقد والبيان القدير.

****

المقامــات (نشـأتها وتطورها) :

المقامات فى مشهور الأدب العربى ، مفردها مقامة ، وهى فى اللغة تُطلق على المجلس ، والسادة ، والجماعة من الناس يجتمعون فى مجلس . ثم تطور هذا المفهوم حتى أصبحت المقامة تعنى " **الأحدوثة من الكلام** " ، كأنها تُذكر فى مجلس واحد يجتمع فيه الناس لسماعها .

وعن نشأة المقامة كفن من فنون النثر العربى يقول القلقشندى فى كتابه (**صبح الأعشى**) :

" واعلم أن أول منْ فتح عمل المقامات ، علاّمة الدهر وإمام الأدب البديع الهمذانى (٣١٩)هـ فعمل مقاماته المشهورة المنسوبة إليه ، وهى فى غاية البلاغة وعُلوّ الرتبة فى الصنعة ، ثم تلاه الإمام أبو محمد القاسم الحريرى (٥١٦) هـ ، فعمل مقاماته الخمسين المشهورة ، فجاءت نهاية من الحُسن ، وأقبل عليها الخاص والعام " .

فالمقامات طراز من النثر الفنى ، ظهر أولاً فى الشرق على يد بديع الزمان الهمذانى ثم حذا الحريرى حذوه فيه ، وتأثر به ، يقول ابن خلكان فى كتابه وفيات الأعيان :

" بديع الزمان هو صاحب الرسائل الرائقة ، والمقامات الفائقة ، وعلى منواله نسج الحريرى مقاماته ، واحتذى حذوه ، واقتفى أثره ، واعترف فى خطبته بفضله وأنه هو الذى أرشده إلي سلوك هذا النهج " .

وعن طريقهما انتشر فى شتى البيئات العربية ، ومنها بيئة الأندلس .

والمقامة- كما وضع تقاليدها بديع الزمان الهمذانى- فن أدبى بديع ، على صورة حكاية قصيرة ، يقوم بالحدث فيها بَطَلان خياليان تنتهى فى مغزاها بملحة أو عبرة أو عظة أو طرفة ، يُجريها فى أسلوب أدبى يغلب عليه السجع ، ينقد فيه المجتمع ، والأشخاص والسياسة ، والأخلاق ، وُضعت للكِدية أو الاستجداء.

وتقاليد المقامة لم يدم الارتباط بها طويلاً ، فظهر من أدباء المشرق منْ خرج بالمقامة عن رسومها المعروفة عند بديع الزمان والحريرى ، ونظر إليها على أنها قطعة فنية من النثر المسجوع ، تتسم بالتأنق فى لغتها وأسلوبها وصياغتها ، وليس فيها شخصيات تُروى أو يُروى عنها ، وليس فيها كِدية أو استجداء ، وصارت أقرب إلي المقالة منها إلي المقامة . وتأثر أدباء الأندلس بالمقامات الشرقية شأنهم فى ذلك شأن كثير من الأدباء فى مختلف البلاد ، فانتقل هذا الفن إلي أندلسهم منذ أن اهتم الأندلسيون بدراسة العلوم المختلفة والإفادة منها فى شتى مناحى الحياة ، فقد درسوا هذا الفن الجديد من الأدب فى جملة ما درسوه من العلوم والفنون ، ثم عادوا إلي بلادهم يحملونه وينشرونه بين الأدباء فى وطنهم .

واهتم بعض أدباء الأندلس وكتابها بهذا الفن القادم إليهم ، فكتبوا مقامات قلّدوا فيها مقامات بديع الزمان وعارضوها ، فذكر ابن بسام فى كتابه (**الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**) ، أنه فى أيام المعتضد بن عباد (٤٣٤ . ٤٦١) هـ ، وضع الأديب أبو عبد الله ابن محمد القيروانى مقامات عارض فيها البديع فى بابه ، وصب فيها على قالبه ومنواله ، وذكر أيضاً أن الشاعر أبا المغيرة عبدالوهاب بن حزم (٤٢٠) هـ عارض رسالة لبديع الزمان فى وصف غلام .

ومنذ أن ظهرت مقامات الحريرى بالمشرق ، انتشرت انتشاراً كبيراً فى الأندلس وعنى بها الأدباء فى حياة مؤلفها ، وبعد موته ، فلم يكتفوا بدراستها وروايتها ، بل تناولوها بالشرح والمعارضة .

ومن أبرز منْ تأثر بمقامات الحريرى الخمسين ، الأديب أبو طاهر محمد التميمى السرقسطى المتوفى بقرطبة سنة (٥٣٨) هـ ، فله (**كتاب الخمسين مقامة اللزومية**) وهى المعروفة (**بالمقامات السرقسطية**) ، وقد عارض بها مقامات الحريرى الخمسين ولزم فى نثرها المسجوع ما لا يلزم .

وكَثر كتاب المقامات فى الأندلس ، وإن كانوا لم ينالوا شهرة السرقسطى **أمثال الأديب** : محارب بن محمد الوادى آشى ، فقد وضع مقامة فى مدح القاضى عياض بن موسى السبتى ، والأديب أبو عبد الله محمد بن القرطبى الليلى الذى وضع مقامة سماها (**المقامة العياضية الغزلية**) .

ومن أواخر كتاب المقامة فى الأندلس الوزير لسان الدين ابن الخطيب (٧٧٦)هـ فله عدة مقامات منها (**معيار الاختيار في أحوال المعاهد والديار**) ، (**وخطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف**) ، (**والمقامة السياسية**) .

ولقد نوع الأدباء الأندلسيون فى موضوعات المقامات ، وتغنوا فى مضمونها بجانب براعتهم فى الأسلوب والصناعة ، فجاءت مقاماتهم فى النقد الأدبى ، والمدح والهجاء ، والغزل ، والمجون ، والسياسة ، ووصف المدن والرحلات ، ويُعد كتاب (**الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**) لابن بسام الشنتريني الأندلسى مصدراً مهماً لأدب المقامات فى الأندلس .

فأورد ابن بسام لأبى عبد الله محمد بن شرف القيروانى ، وهى مقامة طويلة نقد من خلالها طائفة من الشعراء والكتاب يمثلون الجاهلية والإسلام والعصر العباسى وبعض شعراء الأندلس ، وجعلها على لسان شخص يُدعى (**أبو الريان**) ، قال أبو الريان فى امرئ القيس " الضليل " مؤسس الأساس ، وبنيانه عليه الناس ، وكانوا يقولون (**تامة القامة ، وطويلة القامة ، وجيداء ، وتامة العنق**) حتى قال (**بعيدة مهوى القُرْط**) ، وكانوا يقولون فى الفرس السابق (**يلحق الغزال والظليم**) وشبهه حتى قال (**قيد الأوابد**) ، ولم يكن قبله من فطن لهذه الإشارات والاستعارات غيره فامتثلوه من بعده ، وكانت الأشعار قبله سواذج ، فبقيت هذه حُذُداً ، وتلك نواهج وكل شعر ما خلاها فغير رائق النسج ، وإن كان مستقيم النهج .

وقال في البحترى : " وأما البحترى فلفظه ماء ثجاج ودرٌّ رجراج ، ومعناه سراج وَهّاج ، على أهدى منهاج ، يسبقه شعره، إلي ما يجيش به صدره يُسْرَ مُرَاد ، ولين قياد إن شربته أرواك، وإن قدحته أوراك ، طبع لا تكلف يعيده ، ولا العناد يثنيه، لا يُملُّ كثيره ولا يستكف غزيره ، لم يهف أيام الحُلْم ، ولم يصف زمن الهَرَم " .

قال في ابن عبد ربه : " وأما ابن عبد ربه القرطبى ، وإن بعدت عنا دياره فقد صاقبتنا أشعاره ، ووقفنا على أشعار صبوته الأنيقة ، ومكفرات توبته الصدوقة ومدائحه المروانية ومطاعنه فى العباسية ، وهو فى كل ذلك فارس ممارس وطاعن مداعس ، وأطلعنا فى شعره على علم واسع ، ومادة فهم مضئ ناصع ، ومن تلك الجواهر نظم عقده ، وتركه لمن تجمل بعده " .

وعلى هذا النهج مضى ابن رشيق القيرانى فى مقامته إلي نهايتها يبدى آرائه النقدية فى بعض مشاهير شعراء الجاهلية والإسلام التى أطلقها لسان بطل مقامته أبى الريان .

****